آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الثامنة : العددان التاسع والعشرون والثلاثون - ربيع الأول ١٤٢١ هـ - تموز (يوليو) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كُتِب في منتصف القرن الثالث عشر الهجري

A copy of the Holy Quran written in the middle of the 13th century A.H.

الشيخ والقارورة

تطور العلوم الطبية عند العرب والمسلمين

الدكتور/ إسماعيل نوري الربيعي
أستاذ تاريخ الفكر العربي المساعد
جامعة السابع من إبريل
الزاوية – ليبيا

لم يكن العرب ناقلين للعلوم الطبية عن اليونان ، أو ناسخين للكتب التي أخرجتها مدرسة كنيدوس ومدرسة كوس أو للتعاليم الطبية التي وضعها أبقراط الكوسي (ت ٣٧٥م) فحسب[١] ، بل كانت اللمسات الخاصة والإضافات العلمية الدقيقة واضحة في هذا المجال الدقيق الذي لا يحتمل الخطأ ، ولا سيّما أنّ الممارسة تتمّ على الجسم البشري بصورة مباشرة. ولعل الأهميّة القصوى ، التي تنطوي عليها أهميّة دور العرب في هذا المجال ، تتجلى في حالة الاستمرارية التي نهضوا بها ، بعد الظلام الذي عمّ أوربا إبّان العصور الوسطى ، ولم يكن هذا الدور ملء فراغ محض ، أو بروزاً في ساحة خالية من التنافس فقط ، بل إنّ الروح العلمية كانت على أشدّها ، حين تمّ تقديم هذه العلوم في طبقٍ من ذهب إلى الأمم والشعوب المختلفة ، ويأتي هذا انسجامًا مع المبادىء التي رسّخها الدين الإسلامي في أهمية نشر العلم وتقديمه إلى الناس كافّة ، بوصفها خدمة عامة ، غايتها الفائدة والإفادة وتعميم الاتصال[٢].

بدايةً لا بدّ من التنبّه هنا إلى الدور الذي اضطلع به العرب في حفظ العلوم الطبية، وتعاملهم معها بحسّ المسؤولية والوعي التامّ، فعلى سبيل المثال لم تفلح أقوام أخرى في تنظيم العلم اليوناني أو تنسيقه الذي يعدّ إرثًا للبشرية جمعاء، وهذا ما تمّ فعلاً على أيدي الرومان، الذين أبقوا على المعارف الطبيّة القديمة دون تطوير، بل وقعوا في أخطاء نتيجة سوء الفهم. وتبرز الأهمية القصوى للدور العربي في هذا المجال في أنهم كانوا الأمناء على هذا العلم حتى بلوغه مرحلة العلوم الحديثة وانتقال العالم من تاريخ العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

كانت الميزة الأكثر حضورًا في الطب العربي قد تبلورت في الاتجاه نحو الطب التجريبي، الذي

يستند على الجانب العملي في تشخيص الحالة المرضيّة، والتعامل الحاذق والدقيق مع النظريات الطبيّة، ومن هنا كانت الإضافات التي وضعوها على العلوم، التي قدمتها الأمم السابقة لهم، مثل اليونان والكلدان والسريان. ولعل المراجع العلمية الطبيّة التي خلّفها العلماء العرب والمسلمون تعدّ خير شاهدٍ على المستوى الرفيع الذي بلغوه، إلى الحدّ الذي بقيت فيه هذه المراجع بمنزلة المفاتيح الأساسية لطلاب الطب في أوربا حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، حيث بقيت كتبٌ مثل: القانون في الطب لابن سينا، والحاوي للرازي، والتصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي، تمثّل الأساس الذي قام عليه علم الطب في أوربا خلال العصور الحديثة.

كان للاتصال أثره المهم في توسيع مدارك العرب في مجال المعرفة والعلوم الطبيّة، فأخذ العرب خلال العصر الجاهلي عن الأقوام المجاورة، لا سيّما الفرس والروم، وتمكنوا من إتقان بعض العلاجات في مجال العيون والأسنان والعظام وأمراض المعدة، حتى إنّ الكثيرين من الأطباء العرب كانوا يركّزون على أهمية التدقيق في اختيار الطعام، والتأنّي والتحسّب في مجال العادات الغذائية، حتى كان المثل الأكثر شهرة قد أكّد أن: «المعدة بيت الداء». وكانت الإشارات تترى حول الوقاية، وأنها خيرٌ من العلاج[٣]، وفي هذا حرص الأطباء العرب على تقديم النصح والإرشاد حول العادات الصحيّة وتأكيد الممارسات المتوازنة التي تنهى عن التخمة، وتؤيد الابتعاد عن تناول الدواء إلاّ في الضرورات القصوى، وركّزوا على أهمية المزاج النفسي ودوره الفاعل في ظهور الأسقام داخل البدن البشري. ونتيجةً لأهمية مهنة الطب وقيمتها لدى العرب، لم تكن ممارستها ومعارفها مشاعة، بل إنّ المشتغلين فيها نالوا مكانةً بارزة وأهمية اجتماعية، ملؤها الاحترام والتقدير، حيث تبرز أسماء مثل: الحارث بن كلدة الثقفي (- ٥٠هـ)، وزهير بن جناب (- ٦٠ق هـ)، وابن قديم.

ولم تقتصر ممارسة هذه المهنة على الرجال، بل برع فيها عددٌ من النساء، وكان من أشهرهن زينب الأوديّة[٤]. واستمر الطب العربي خلال حقبة صدر الإسلام بالنهج ذاته الذي سار عليه، من حيث تأكيد الوقاية والحرص على سلامة البدن، والانتقاء الدقيق في اختيار الأطعمة، والتركيز على الحمية، فيما برزت في هذه الحقبة وصايا الرسول ﷺ في وجوب العناية بالصحة العامة، التي عرفت بالطب النبوي، حيث الإشارات المركزة على النظافة والاستحمام والختان، فيما كانت الإشارات تتكرّر حول أهمية طعام العسل؛ لشفاء الكثير من الأمراض، هذا مع وجود المعرفة الحاذقة والدقيقة في علاج الحالات المستعصية[٥]، حيث يتم استخدام الكيّ والحجامة.

اتجه الطب في العصر الأموي نحو الاتساع في الاتصال والانفتاح على المعارف الروميّة والفارسيّة، وقد ارتبط ذلك بتطلعات الخليفة معاوية بن أبي سفيان (- ٦٠هـ) إلى توسيع بلاطه، واستقباله العديد من الأسماء العلميّة والأدبيّة البارزة، وإغداقه العطاء لهم. وكان من أبرز الأطباء الذين اعتمد عليهم أبو الحكم الدمشقي، الذي برع في مجال تركيب الأدوية وتشخيص الأمراض بدقة ومهارة، ونتيجة للموقع البارز الذي حظي به في البلاط الأموي، رافق الدمشقي كبار الشخصيات الأموية في رحلاتهم الطويلة، وكان من بينهم يزيد بن معاوية[٦]. ويبرز اسم الطبيب بن أثال النصراني في بلاط معاوية؛ لخبرته في مجال تركيب الأدوية ومهارته العالية في العلاج ونبوغه بين أقرانه من

أطباء دمشق. ولم يكن بن أثال طبيبًا فقط، بل رجلاً له حضوره البارز، حيث كان دائم الحضور في مجلس معاوية للمنادمة والمسامرة(٧).

لعل الحالة الأهم في تطوّر العلوم الطبية تتمثل في انتقال تدريس الطب من الاسكندرية إلى أنطاكية وحرّان، وقد ارتبط هذا الأمر بالعلاقة الوطيدة بين الخليفة عمر بن عبد العزيز (- ١٠١هـ) والطبيب المصري عبد الملك بن أبجر الكناني، حيث طلب الخليفة من ابن أبجر أن يكون إلى جانبه في دمشق، انطلاقًا من معارفه العالية في الطب وثقته العالية به. وقد عرف عن هذا الطبيب ولعله بالفحص والاختبار قبل القطع في تشخيص الحالة، وفي هذا كان يطلب من المرضى بعضًا من بولهم لغرض فحصه، حتى إنه طلب من الخليفة أكثر من مرّة عيّنات من بوله لغرض فحصها(٨). وحرصًا من الخليفة عمر بن عبد العزيز على التوسّع في المعارف الطبيّة، والاستفادة من خبرات الأمم الأخرى في هذا المجال، أوكل مهمة ترجمة كتاب القس أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية إلى الطبيب اليهودي «ماسرجويه»، ونتيجة لنجاح هذا الطبيب في مهمّته شجّعه الخليفة على ترجمة كتبٍ أخرى وتصنيفها، كان من بينها، كتاب (قوى الأطعمة ومنافعها) وكتاب (قوى العقاقير ومنافعها).

كان لانتشار حركة الترجمة، وبروز العناصر غير العربية في الدولة العباسية، أثر في تطوّر علم الطب، حيث اعتمد الخليفة أبو جعفر المنصور على الطبيب النسطوري جورجس بن بختيشوع، الذي كان يعدّ من أعلام مدرسة جند يسابور العلميّة. وكان ورثته قد برزوا في البلاط العباسي، من أمثال عيسى بن شهلا وبختيشوع بن جورجس، الذي أصبح الطبيب الخاص لهارون الرشيد، واستمر في الخدمة حتى صار الطبيب ذا الحظوة والمكانة لدى المأمون، وتعتمد معارفه الطبية على الخبرة والمهارة، إضافة إلى حسن الاطلاع والمتابعة الصارمة، حيث تمكن من تصنيف كتاب في العلوم الطبية موفقًا بين آراء ثلاثةٍ من أبرز الأطباء، هم ديوسقوريدس وجالينوس وبولس الأجيني.

أفرز الاعتماد على مدرسة جنديسابور، مؤشرًا مهمًّا، تمثّل في التأثير الهندي في العلوم الطبيّة، إضافةً إلى الاعتماد الرئيس على المراجع اليونانية، التي كان يتم استجلابها من مدرسة الاسكندرية(٩). ويبقى الأثر الأهمّ في كلّ ذلك يرتبط باسم الطبيب حنين بن إسحاق، الذي اضطلع بمسؤولية الترجمة في دار الحكمة التي أسسها المأمون، حيث ترجم هو وفريق العمل الذي كان يعمل برفقته كتب الطبيب اليوناني جالينوس وأبقراط وديوسقوريديس، إضافةً إلى الكتب التي صنفها هو نفسه، ومن أبرزها (مسائل في الطب) و(رسالة في العين)(١٠). وقد عرف عن حنين بن إسحاق احترامه الشديد لمهنته وأمانته العلمية، حتى إنه رفض أن يكون أداة في يد رجال السلطة للإيقاع بهذه الشخصية أو تلك. وقد بلغ من التماسك وصدق العزيمة أنه نجح في الاختبار الذي وضعه الخليفة المتوكل، عندما طلب منه أن يصنع له السم، لكنه أبى ذلك إلى الحدّ الذي أدخل فيه السجن، وتعرضت حياته للخطر، فنالت شخصية حنين التقدير والاحترام والسمعة الكريمة نتيجةً للالتزام العالي الذي درج عليه، والربط الصارم بين المعرفة العلمية وأخلاق المهنة(١١).

لم يكن حنين غريبًا عن عالم الطب ووسطه؛ إذ نشأ في كنف عائلة تشتغل في هذا المجال، وكان أبوه يعمل في تركيب الأدوية، وله معرفة واسعة في الأعشاب وأسرارها، حيث ذاعت شهرته، ونتيجةً لنبوغ حنين المبكر أرسله والده للدراسة في بغداد،

من أجل تعلّم الطب على يد «يوحنا بن ماسويه»، إلاّ أنه لم يعمّر طويلاً لدى هذا الطبيب، فاتصل بالطبيب جبرائيل بن بختيشوع وأولاد موسى بن شاكر، ليبدأ اهتمامه وتركيزه على دراسة كتب الطب اليونانية، وتوجهه نحو ترجمتها التي أفادته كثيرًا، وجعلته يتقدم بقية أقرانه من الأطباء إلى الحدّ الذي بلغ فيه أرفع منصبٍ علميّ، تمثّل في ترؤسه[١٢] لدار الحكمة التي أنشأها المأمون.

على الرغم من المكانة الرفيعة والسمعة العالية التي تمتّع بها حنين إلاّ أنّ هذا لم يقتل فيه روح البحث والمتابعة، بل إن المكانة هذه كانت تمثّل لديه الدافع الأكبر في توجّهه نحو التقصّي عن المعلومة الجديدة، حتى لو تجشّم لها عناء السفر وقطع المسافات الطويلة؛ لبلوغها والتحقّق منها، فسافر إلى العديد من المناطق لجمع النادر والنفيس من الكتب والمخطوطات العلميّة. ولعل ما يميّز هذا الطبيب والعالم المتبحر تطلّعه الدائب نحو رسم منهجٍ خاصّ به، تمثّل في التعامل مع النصوص الطبيّة القديمة بحرفيّة عالية، حتى إنه كان يعمد إلى ترجمتها بتصرّف، حتى برز هذا الأمر على طلابه الذين تأثّروا بأسلوبه.

إن الاطلاع الواسع الذي درج عليه حنين جعل لديه القدرة والمكنة من البحث والتأليف الخاصّ، حيث قيّض له أن يتناول العديد من الموضوعات الطبيّة بشكلٍ دقيق، حتى بلغت بحوثه في هذا المجال ما ينوف على تسعة وعشرين بحثًا، احتلت أهمية ومتابعة بالغة من قبل المهتمين بهذا الاختصاص. وزاد على ذلك في وضع المصطلحات، وأكّد أهمية التدقيق في النظريات القديمة، متّخذًا في ذلك منهج التجريب والدراسة المعمّقة للحالات الطبية من خلال الرصد والمتابعة لكل حالة، ووضع الملاحظات حول ذلك، حتى غدا كتابه (المسائل في الطب) من المراجع المهمة لنيل إجازة ممارسة مهنة الطب من قبل المشرفين. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إنّ كتابه هذا تمّت ترجمته إلى اللاتينية[١٣]، وغدا من المراجع التي لا يمكن الاستغناء عنها في الوسط الطبيّ الأوربي، خلال العصور الوسطى.

وكان للأسلوب المميّز الذي غدا الطابع الأبرز في تطلّعات حنين، أن وضع عشرة بحوث في مجال أمراض العيون، حيث لم يكتف بالوصف، بل عمد إلى وضع اللوحات التشريحية الدقيقة للعين، مما يؤكد اتجاهه التجريبي الذي غدا المرجع الأساس في دراسة العيون[١٤]، وأمراضها.

ومن الأسماء التي لمعت في مجال الطب يبرز العالم الموسوعي يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي برز نشاطه خلال خلافة المعتصم، وكان تركيزه على أهمية احترام النفس البشرية والإعلاء من شأن مهنة الطب، والتعامل معها بحرص وتفانٍ وصبر، فليس من السهل الخطأ فيها؛ إذ يكلَّف فيها الشيء الكثير، مما يعني فقدان حياة إنسان، أو التسبب في إحداث عاهةٍ فيه، وإنّ علم الطب شأنه كبقية العلوم، لا يمكن تحصيله إلاّ بالصبر والمتابعة وبلوغ المعرفة المتقنة. وكان الكندي قد وضع العديد من التصانيف الطبيّة، شملت مجالات أسلوب أبقراط الطبي، وأهمية الغذاء وتأثيره المباشر في الصحة، وفي عمل الدماغ، والأمراض الجلدية، والحميات[١٥].

كان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة الري الواقعة جنوب مدينة طهران في بلاد فارس العَلَم الأهمّ في مجال العلوم الطبية. وتعود علاقته بميدان الطب إلى المصادفة المحضة خلال زيارته إلى مدينة بغداد، التي كانت تمثل منارة العلم في تلك الحقبة، فعندما دخل إلى إحدى المستشفيات

الكبيرة التقى أحد الصيادلة البارعين في تركيب الدواء، وأثارته النتائج التي يمكن الحصول عليها من خلال استعمال الأدوية، وتأثيراتها المهمة والمباشرة في تحصيل الشفاء. هذا الأمر جعله دائم التردّد على البيمارستان العضدي إلى الحدّ الذي شغف بهذا العلم وفروض هذه المهنة، حتى بدأ بتعلمها وراح يرتقي فيها، حتى تحصّل على لقب جالينوس العرب(١٦).

ونتيجةً لمواهبه وقدراته الخاصة في رصد الظواهر والأعراض تمكّن من أن يطوّر من إمكاناته، مضافًا إلى ذلك تلطّفه بمرضاه ورعايتهم بحنوّ وعطف دون تمييز لمكانةٍ أو جاه أو غنى. ومن أجل بلوغ غاية الدقة كان يعمد إلى وضع ملاحظاته الخاصة بكل مريض، محدِّدًا الأعراض والتطورات التي تطرأ عليه، والدواء الذي تناوله خلال مراحل علاجه. والواقع أن هذه الملاحظات السريرية الثمينة، كانت المادة الرئيسة لكتابه الشهير (الحاوي)، حيث جمعها طلابه(١٧) بعد وفاته في نسقٍ واحد، كجزءٍ من ردّ الجميل إلى أستاذهم.

لقد طبقت شهرة الرازي الآفاق، وغدت له مكانته الأثيرة لدى ذوي السلطان أو تلامذته، بل إن المرضى ذاتهم تعلّقوا به نتيجة المعاملة الخاصة والعناية التي كان يغدقها عليهم. أما بالنسبة لأهميته العلمية فإنه، إضافةً إلى المسؤوليات التي كان يتجشّم عناءها، كإشرافه على المستشفيات الكبرى في بغداد، أو في بعض المدن الإسلامية الأخرى، والرجوع إليه في أدق الحالات وأكثرها تعقيدًا، تمكّن من تطوير اطلاعه والاستمرار في متابعة كل ما يصدر من مخطوطاتٍ تتعلق بالعلم الطبيّ أو المجالات العلمية الأخرى. ولعلّ الدليل الأبرز في أمانة الرازي العلميّة وسعة اطلاعه يكمن في سعة الإشارات وتنوعها التي كانت تترى في كتبه الطبيّة، والتي زادت على المائتين ونيّف، حيث المصادر اليونانية والهندية والفارسية(١٨)، مما جعلها مثلاً لحسن الاطلاع على معارف الأمم في هذا المجال واختصارًا لخبراتها.

ولم يقف الأمر عند العلاج السريري أو التأليف، بل كان لبراعته في علم الكيمياء أثره البارز في ربط علم الطب بالعلوم الأخرى، وتطلعه نحو تبنّي المنهج النقديّ الصارم في دراسة الحالة؛ إذ لم يأخذ الأمور على علاّتها، بل كان يتوقّف مليًّا عند الحالة، ويقوم بدراستها من جميع الجوانب(١٩)؛ ليصل إلى النتائج الشافية. أما معرفته الواسعة في مجال التشريح فقد مكّنته من الوصول إلى وضع علاجاتٍ ناجعة للعديد من الحالات المستعصية.

يمكن رصد العديد من حلقات التطور العلمي في حياة الرازي، حيث كتب في بداية اشتغاله بالطبّ كتاب (المجرّبات) واضعًا فيه المعارف التي تحصّل عليها خلال إقامته الأولى في بغداد وعودته إلى مدينته «الري». أما المرحلة الثانية فتتمثل في وضعه لكتابين حظيا بالأهمية، ولفت إليه أنظار حاكم الري المنصور بن أسد، حيث كان كتابه (الطب المنصوري) حاويًا للعديد من الموضوعات المتعلقة بالتشريح، والحميات، ومعالجات السموم، والوسائل الرئيسة في الحفاظ على الصحة ومواجهة أخطار الأمراض. وكتابه الثاني (الطب الروماني) الذي اهتمّ فيه بتقصّي حالات النفس البشرية والتحولات التي تطرأ عليها.

كانت ملاحظات الرازي الأساسية تلحّ على أهمية الدراسة المستمرة والدأب والمثابرة في تحصيل الخبرة والمعلومات، وكانت إشاراته المعتادة تركّز على أن الإقامة في المستشفيات وملازمة

رئيس الأطباء من أجل التحقّق من الحالات تعدّ الطريق السليم لبناء الطبيب الخبير والممارس. وكان موقفه واضحًا وصارمًا إزاء الدخلاء على مهنة الطب، ولا سيّما المشعوذون الذين لا يتورعون عن أداء الحيل من أجل الحصول على الأموال، ولو على حساب صحة الناس وحياتهم.

ويفرد الرازي للمشورة مكانة بارزة حتى إنه كان يلحّ على وجود «هيئة استشارية» لتحديد العلّة وتجنّب الأخطاء الفردية. وكانت نصائحه تشدّد على ضرورة التزام المريض لطبيبٍ واحد، دون الانتقال من طبيبٍ إلى آخر، فالطبيب الواحد هو الذي يمكن أن يتابع الحالة من بدايتها، ويستطيع أن يُحدّد، من خلال استشارة زملائه، العلاج الأفضل، أما التأكيد الأهم فإنه يتعلّق بالحالة النفسية للمريض، وأنها تمثّل خط الدفاع الأول في مواجهة المرض، مهما بلغت درجة تمكّنه من جسم المريض.

إن المنهج الصارم الذي دأب عليه الرازي في علم الطب جعله يتصدى بالدراسة العميقة والناقدة لأبرز مصادر الطب المعروفة، حيث وضع كتاب (المرشد)، لمناقشة العيوب التي وقع فيها الطبيب اليوناني الشهير أبقراط، إضافةً إلى وضعه كتاب (شكوك حول جالينوس) الذي تعرّض فيه لآراء جالينوس في العديد من الأفكار الطبيّة[٢٠]، مشيرًا إلى مواطن الخلل والضعف فيها.

ومن الأطباء اللامعين الذين بزّوا أقرانهم، وتمكنوا من تحصيل المهارة والكفاءة والمعرفة، يبرز «ابن سينا»، الذي حاول أن يرسي منهجًا خاصًّا له في مجال دراسة الطب، مستفيدًا من دراساته الموسوعيّة في مجال الأدب والعلوم والفلسفة[٢١]، حيث التركيز على السؤال والبرهان في دراسة الظاهرة.

وكان ابن سينا قد حرص على تعميق دراساته النظرية بالتطبيق العملي، من خلال مباشرته لدراسة الحالات ومعاينتها، وتدوين ملاحظاته عليها، ولم يكن ليتقاعس عن ممارسة عمله، أو تكليف مساعديه في بعض الشؤون، بل إن تركيزه كان ينصبّ على المقارنة، ودراسة الأسباب المحيطة بالظاهرة، والتركيز على الأسباب كلّ على حدة[٢٢]. ولعلّ العمل الأكثر شهرةً وتميّزًا ما يتمثّل في كتاب (القانون في الطب)، الذي اختصر فيه أبرز الآراء الطبيّة التي وضعها أبقراط وجالينوس، والخبرات الطبيّة التي عرفها اليونان والسريان والهنود والفرس، مضيفًا إليها الخبرات الخاصة والتجارب الشخصية له.

ومن الإرشادات الرئيسة التي يقوم عليها الكتاب ما يتركّز حول تنظيم الغذاء، ولا يجوز تناول الدواء إلاّ في الظروف العصيبة والحاجة الملحة[٢٣]. وإنّ للبيئة أثرها المهم في حالة الإنسان. والإمكانية السليمة والصحيحة في تخدير المريض الخاضع للعمليات الجراحية، والتخدير الشديد من بعض الأمراض، وضرورة عزلهم في محاجر خاصّة، بعيدة عن التجمعات السكانية، ومع الأهمية القصوى في اختبار الدواء قبل استخدامه من قبل الإنسان، ولا سيّما الجديد منه حيث أشار ابن سينا إلى إمكان تجربته على الحيوان ومراقبته بدقة وحرص[٢٤].

ومن الملاحظات الجديرة بالعناية تركيزه الشديد على ضرورة بتر الأجزاء المصابة بالسرطان بوقتٍ مبكر خشيةً من انتشاره في جسم المصاب، إضافةً إلى الربط بين المرض والحالة النفسيّة للمريض، بل إنه أشار إلى إمكان معالجة بعض الأمراض بالموسيقا لما لها من تأثيرٍ في استقرار الأحاسيس والعواطف[٢٥].

حظيت مهنة الطب بالاهتمام والرعاية والمكانة الأثيرة لدى المجتمع بجميع فئاته، حتى إنّ الأمراء وأصحاب السلطان كانوا يحرصون على تزيين بلاطهم بالوجوه العلميّة البارزة، ولا سيّما الأطباء منهم(٢٦). أما ابن سينا فقد نال من المكانة الرفيعة لدى الأمير شمس الدين في همذان، حيث جعله وزيرًا له، لكن هذه المكانة صارت وبالاً عليه لا سيّما من قبل المنافسين والطامحين إلى بلوغ المراكز العليا، إلاّ أن شهرته التي طبقت الآفاق جعلته يحظى بمكانٍ رفيع آخر في أصفهان لدى الأمير علاء الدين أبي جعفر(٢٧).

أما نقيب أطباء بغداد هبة الله بن صاعد، ابن التلميذ البغدادي (ت ٥٦٠)، فقد عرف عنه قدرته العالية ونباهته المميّزة التي أهّلته أن يكون مشرفًا عامًّا على البيمارستان العضدي في بغداد، وكان المسؤول الأول عن إجازة مهنة الطب في بغداد(٢٨)؛ لسعة علمه ومعرفته بقوانين الطب وأسراره، وكان يؤكد أن الطبيب يتحمّل مسؤوليّة بالغة الأهمية، كونها تتعلّق بحياة الإنسان، وهي المهنة التي لا تحتمل التخمين أو المصادفات، بل يجب القطع بالحالة بموضوعية وحزم، وقد تمكّن هذا الطبيب من وضع المصنفات المهمّة، التي غدت مراجع أساسيّة لطلبة الطب في بغداد والعالم الإسلامي(٢٩).

وفضل الأطباء المسلمين على تطور الطب في العالم واضح للعيان، حيث تشير إليه في ذلك الاكتشافات البارزة التي وصلوا إليها. فابن النفيس (ت ٦٨٨هـ) سبق أطباء أوربا بحوالي ثلاثة قرون في اكتشاف الدورة الدموية، وتمكّن من الوقوف على التمييز بين الشرايين والأوردة، إضافةً إلى الانتقادات العلمية التي وضعها على آراء جالينوس وابن سينا في مجال سريان الدم داخل الجسم البشري(٣٠).

إنّ الاتساع الذي بلغته الحضارة العربية وتعدّد مراكزها في المشرق والمغرب كان قد ساهم في بروز العديد من المبدعين والبارزين في المجالات العلميّة المختلفة، ولم يكن الإبداع حكرًا على جهةٍ دون الأخرى، بل إنّ الازدهار كان يشمل الدولة العربية الإسلامية كلها، وهذا ما تؤكده حالة التألّق التي ظهرت في المغرب العربي والأندلس سواء بسواء مع الحواضر المشرقية كدمشق وبغداد والري وأصفهان.

من الأطباء الذين أنجبتهم الأندلس يبقى اسم الزهراوي، المولود في مدينة الزهراء، الواقعة على مقربة من مدينة قرطبة، وكان قد اشتُهر بالجراحة بشكلٍ خاصّ، فيما وضع خلاصة تجربته الطبيّة والجراحيّة التي زادت على خمسين عامًا في كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، مشيرًا فيه إلى أهمية العلاقة القائمة بين الطبيب والمريض، وأن التشخيص يعدّ الأساس الذي تقوم عليه العملية الطبيّة، فلا سبيل للعلاج إلاّ عن طريق تحديد العلة، ليتمكن الطبيب من ثمّ من تحديد الدواء. فيما أشار إلى أهمية الجانب الأخلاقي والإنساني في هذه المهنة(٣١)، وأنّ على الطبيب أن ينظر إلى الحالة بوازع أخلاق المهنة والانتماء إليها، وليس من أجل الحصول على المكاسب الماديّة.

كان الزهراوي قد استند في معلوماته الطبيّة على جالينوس، لكن هذا لم يكن يعني أنّ لمساته الشخصية مفقودة في الكتاب، بل إنّ التفصيلات التي يضعها حول تشريح جسم الإنسان وأعمال الجراحة لتعدّ قيمة أصيلة لهذا الطبيب، إضافةً إلى المعرفة الواسعة في مجال العقاقير الطبيّة والمستحضرات الخاصة بها، أما في مجال الجراحة فإنه يذكر في كتابه ما يزيد على مئتي أداة جراحية، يوردها بالصور التوضيحية، مع دراسة وافية

ومفصّلة عن فصد الدم والتوليد وتجبير العظام المكسورة، وطريقة استخدام الكاويات في الجراحة، واستئصال اللوزتين، واستخراج الحصى من المثانة. وكان له السبق في مجال ربط الأوعية الدموية. والواقع أن المعرفة بهذه السعة والقدرة جعلته يحتل مكانة رفيعة لدى طلاب الطب في العالم[٣٢]، حيث ترجمت كتبه، وبقيت قيد التداول حتى عصر النهضة الأوربية.

تتمثل الحالة الأبرز في التعاون والتكامل تلك الحالة التي درج عليها الأطباء العرب والمسلمون، فالطبيب ابن زهر (ت ٥٥٧هـ) كان قد اتفق مع الفيلسوف والطبيب ابن رشد ليكون كتابه (التيسير في المداواة والتدبير)[٣٣] متمّمًا لكتاب ابن رشد (الكليات)، وفي هذا تكون الدلالة الصادقة على سيادة النزعة العلمية وروح البحث الصادقة. والواقع أن ابن زهر لم يكن غريبًا عن الوسط العلميّ؛ فهو ابن عائلة علميّة جلّها من الأطباء البارزين، إضافةً إلى معرفته الواسعة بالعقاقير والأدوية ومركباتها، وكانت شهرته العلميّة قد بلغت أوربا، وتمّ ترجمة كتبه إلى اللاتينية[٣٤].

إنّ الخبرة والدراسة العميقة والبحث والتقصّي جعلت من الأطباء العرب والمسلمين، يتوصلون إلى العديد من الاكتشافات العلميّة؛ إذ أشاروا إلى أنّ الأمراض، وإن كانت شأنًا يجري داخل الجسم، فإن بعضها معدٍ، قابل للانتقال من هذا المريض إلى ذاك السليم. وكان الطبيب الغرناطي ابن الخطيب (ت ١٣٧٤م) وزميله ابن خاتمة الأندلسي ١٣٦٩م قد ثبّتا هذه الحقيقة، بعد انتشار وباء الطاعون في العالم، الذي بدأ في الهند عام ١٣٣٢م ليصل إلى الأندلس عام ١٣٣٨م. وفي الوقت الذي كان المهتمون منشغلين في تحليل الأسباب المؤدية إلى هذا الوباء، ويربطونه بالعديد من الظواهر، التي لا تخرج عن التفسير الخرافي، أشار هذان الطبيبان إلى أنّ الاتّصال بالمرضى يعدّ السبب الرئيس في انتقال هذا المرض وانتشاره في العالم، مع العلم أن ابن خاتمة كان الأكثر توفيقًا في وضع الوصف الدقيق لأعراض المرض ووسائل العلاج منه على أساس أنه عاش المحنة التي حاصرت مدينته[٣٥].

يمكن التوقّف عند عاملين ساهما بهذا القدر أو ذاك في رسم أبعاد منهج البحث العلمي لدى الأطباء العرب المسلمين، حيث يبرز التفكير المنطقي والتجربة المباشرة، بوصفهما عنصرين أساسيين في تحديد الظاهرة، فتمّ توجيه أسهم النقد إلى جالينوس على أساس أن معظم نظرياته بنيت على منهج التفكير المنطقي، فيما تمّ انتقاد معظم نظريات أبقراط، على أساس أنه كان يبني نظرياته على الملاحظات العابرة، وليس على الاختبارات المتكررة. ولعل اعتماد «ابن النفيس» على التفكير المنطقي كان أحد أسباب غياب اسمه عن لائحة أبرز الأطباء العرب المسلمين، على الرغم من أهمية النتائج التي توصّل إليها[٣٦].

برع الأطباء العرب المسلمون في مجال الجراحة، وكان المصدر الرئيس الذي نهلوا منه قد تمثّل في الخبرات المتحصلة من الهند واليونان، وكان من الجراحين الرازي وعلي بن عباس المجوسي، الذي برع في الجراحة الخاصة باستئصال الحصاة من الكليَة، والزهراوي الأندلسي، الذي وضع مؤلفًا خاصًّا عن الأدوات المستخدمة في الجراحة، التي زادت على المائتين، إضافةً إلى براعته في مجال الكيّ ومعالجة العظام، وتفتيت الحصاة داخل المثانة، وعلاج السرطان. ولعلّ المساحة التي تمتعت بها الجراحة دفعت الطب العربي للعناية بفن التخدير حيث استخدم الحشيش والأفيون والإسفنجة المخدرة، إضافةً إلى عنايتهم بخيوط الجراحة، التي

كان يتم الحصول عليها من أمعاء الحيوانات ولا سيّما القطط منها(٣٧).

هيّأ الاتصال الواسع بمعارف الأمم الأخرى معرفة مهمة في مجال بعض الأمراض، كان من بينها مرض السرطان، الذي أسهب في وصفه الأطباء اليونان. وكان الطبيب علي بن ربن الطبري الذي عاش في القرن الثاني الهجري قد نقل الوصف الذي تعرّض له أبقراط في كتابه (فردوس الحكمة)، حيث الإشارة إلى خطورة هذا المرض وتعدّد أنواعه؛ إذ يكون ما بين داخلي يصعب علاجه، ويودي بصاحبه إلى الهلاك، وخارجيّ لا يمكن علاجه إلاّ بالبتر. فيما تعرّض له بالوصف، ووضع العلاجات له أبرز الأطباء العرب والمسلمين، كان من بينهم حنين بن إسحاق (-٢٦٠هـ)، وثابت بن قرّة (ت ٢٨٨هـ)، والرازي (ت ٣١٤هـ)، وعلي بن عباس المجوسي (ت ٣٨٤هـ)، وابن سينا (-٤٣٨هـ)، ومهذب الدين البغدادي (-٦١٠هـ)، وابن الجزّار القيرواني (ت ٣٦٩هـ)، والزهراوي (٤٢٧هـ)، والقربلياني (-٧٦١هـ).

كانت العناية بدراسة الأورام والتفصيل فيها قد جعلت من الأطباء العرب المسلمين يتوسعون في تصنيفاتها والتركيز على وصف أعراضها وطرق علاجها، حيث قسّموا الأورام إلى صنفين؛ الحميدة والخبيثة. وفي مجال الأورام الحميدة كانت الإشارة إلى الزوائد اللحمية في المناطق الداخلية بين القدمين، والأكياس الدهنية، وأمراض الغدد اللمفاوية(٣٨)، والغدة الدرقية، والثآليل في القدمين، والأورام الصلبة والزوائد اللحمية.

أما بالنسبة للأورام الخبيثة فإنّ الإشارات كانت تتعرّض لها على أساس شكلها الذي وصف بالاستدارة، وعروقها الخضراء المتصلة بداخل أعضاء الجسم، وسرعة تفشيها ونموها شيئًا فشيئًا، وظهور التحولات في الشكل واللون. ويشير الزهراوي إلى أنّ هذه الأمراض وبخاصّة السرطان منها لا براء منه إلاّ بالجراحة أو الكيّ. أما ابن سينا فيصف هذا المرض بالالتصاق الشديد بأعضاء الجسم، دون أيّ أمل بالفكاك منه. وقد استطاع الطبيب العربي المسلم تشخيص عدة أنواع منه، كان من بينها: سرطان العين، والأنف، والحنجرة، واللسان، والمعدة، والكبد، والطحال، والأعصاب، والجهاز البولي، والخصية، والثدي، والرحم(٣٩).

كان الطبيب العربي المسلم قد أفرد المساحات الواسعة من مؤلفاته وبحوثه لموضوع علاج الأمراض، وكان التركيز على الجانب المعنوي والدعم النفسي يأخذ مداه الأهم على أساس أن طاقة الإيمان تحفّز لدى المريض القوى الكامنة في الجسم. والواقع أن هذا الأمر كان له الأثر البارز في شفاء العديد من الحالات، بعد أن كان يُنظرُ إليها، بوصفها حالاتٌ يائسة.

أما الجانب الآخر من العلاج النفسي فقد تمثّل في المشاركة الوجدانية التي تتمثّل في عيادة المريض والاطمئنان عليه والسؤال عنه، وإشعاره بأنه ليس وحيدًا في محنته هذه. ويأخذ التشجيع ورفع الروح المعنوية للمريض حيّزًا مهمًّا لدى الطبيب العربي المسلم، والكثير منهم كان يؤكد دوره الفاعل في علاج المريض، بل في التعجيل بشفائه، حيث كان التركيز على أن ثمة علاقة راسخة ووطيدة بين الجسد والحالة النفسية، فكم من جسدٍ سليم سقط تحت وهم المرض نتيجة للإيحاء، وكم من الحالات المعاكسة برزت في ميدان الحالات المستعصية(٤٠).

ولم يقف الطبيب عند الحدود التقليدية في معالجة الأمراض، بل إنه أكّد دمج المريض بالحياة وإخراجه من حالة الملل، وكانت النصائح تترى حول أهميّة تغيير الجو والخروج إلى البريّة، وتبديل المناظر، والتخلّص من التكرار، وتطمين النفس من خلال الاستماع إلى الموسيقا، ولقاء من يأنس إليه قلب المريض.

أما على صعيد العلاج المباشر فقد اجتهدوا في العديد من الوسائل، كان الأبرز من بينها؛ التدليك، والتبريد، والاستحمام بالمياه المعدنية، وتغطية جسم المريض بالرمال الساخنة، إضافةً إلى العناية الدقيقة بالغذاء وأهميته القصوى في تعجيل الشفاء(٤١).

على الرغم من الاعتماد على العلاج الدوائي الذي وضعه الأطباء اليونانيون، إلاّ أنّ الأطباء العرب المسلمين، بحكم تجاربهم الخاصّة، أضافوا الكثير من الأدوية، حسب الحالات التي واجهتهم. وقد تفنّنوا في ذلك حتى تنوّعت وصفاتهم ما بين الدواء الداخليّ الذي يُقدّم إلى المريض عن طريق الفم والعلاجات الموضعية أو استخدام الجراحة المباشرة. وكان أبرز الأدوية يتراوح ما بين الأفيون، والأفسنتين، والبابونج، والناردين، واللازورد، والحبة السوداء، وعنب الثعلب، والأبهل، والأسارون، والكمون، والكندش، والنرجس، والسوسن. إضافةً إلى اللبن، والريش، وسرطان البحر، ولحوم الأفاعي. وكان الحرص على معالجة السرطان من خلال إيقاف توسّعه داخل الجسم ومعالجة التقرّحات(٤٢)، حتى كانت العلاجات النباتية والمعدنية، ومنها خبث الحديد، والرصاص، والزاج، والزفت، والطين، والملح، والمياه الكبريتية، والنحاس، والأدوية الحيوانية مثل الإسفنج، والبيض، والسلحفاة، والسمك، وقرن الأيل، ومخ العظام، والحلزون، والزبد.

لم تكن الأهمية القصوى، التي نالتها مهنة الطب، والمكانة الأثيرة والمهمة والمحترمة التي حظي بها الطبيب العربي المسلم، وليدة المصادفة، إنّما ارتبطت بالعديد من التنظيمات والإرشادات القائمة على أساس الشريعة الإسلامية، واستيعاب خصوصيّة المجتمع الإسلامي والأعراف السائدة فيه. وكانت كتب الحسبة قد أفردت العديد من الفصول لإيضاح التزامات الطبيب والواجبات المنوطة به والآداب التي يجب أن يتحلّى بها، مع التأكيد الصارم على أنّ كلّ شيء قابل للخطأ والصواب والتجريب، إلاّ في هذه المهمة، التي ترتبط بأقدس مخلوقات الله على الأرض وأهمها، ومن هنا كان الحرص على متابعة الممارسين، ووضع الاختبارات والامتحانات التي تجعل من المؤهلين لها أن يتصدى لها بكل مهارة.

لقد أُخضعت مهنة الطب لنظام الحسبة، الذي كان يمثّل الجهاز التفتيشي المستند على الشريعة الإسلامية، انطلاقًا من مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان المحتسب الذي يتولى شؤون المتابعة والمراقبة على الأسواق والنشاط التجاري والمهني في المدن الإسلاميّة يوجّه عناية خاصّة لمراقبة شؤون الأطباء، ولا سيّما من قبل معاونيه. ولم يقف الأمر عند حدود المراقبة والمتابعة، بل إنّ مهنة الطب شغلت حيّزًا واسعًا ومهمًّا في الأدبيات التي تناولت موضوع الحسبة والتزامات المهنة وأخلاقياتها، فكان الحرص على تناول علاقة الطبيب بمريضه والأسس التي تحدّد علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه، وكان التركيز على أهمية عقد الامتحان لكلّ طالب عمل في هذا المجال، ومنح الناجحين تراخيص عمل خاصّة بهم.

وكانت المهن الطبيّة تتوزع في مجالات الطب

العامّ والكحالة التي تختص بطب العيون والجرّاحين والمجبّرين[٤٣]، الذين يهتمون بمعالجة الكسور والرضوض والخلع. وكانت الإشارات تؤكد أن مهنة الطب من الأعمال الشريفة التي أباحتها الشريعة الإسلامية، لما فيها من منافع وخدمات تُقدّم للناس من أجل الحفاظ على الصحة العامة، وبقدر العناية بالمجتمع يعدّ الحفاظ على صحته من الواجبات الشريفة والأساسية. وكان نظام الحسبة قد وضع شروطًا صارمة على المزاولين مهنة الطب، كان من بينها ضرورة وجود نقيب للأطباء يتلخّص دوره في عقد امتحان الأطباء ومتابعة تحصيلهم والإشراف على تدريبهم من أجل رفع الكفاءة، ولا يتوانى النقيب عن سحب الرخصة من الطبيب المتقاعس وإخضاعه لامتحانٍ جديد[٤٤].

من التقاليد البارزة في هذه المهنة أداء الطبيب العربي المسلم لقسم أبقراط، وهذا له دلالته الثقافية والعلمية. فالانفتاح على ثقافات الشعوب والأمم الأخرى كان السمة الأهمّ في تكوين روحيّة البحث العلميّ. والأهم في كل هذا أنه كان يتلخّص في التركيز على المبادىء الأخلاقية ولا سيّما حفظ أسرار المريض، وغضّ الطرف عن المحارم، والابتعاد عن تقديم الأدوية السامّة أو القيام بأعمال منافية لأخلاقيّات المهنة[٤٥].

كانت كتب الحسبة قد حدّدت الواجبات الملقاة على عاتق الطبيب في معالجة مرضاه، وقد وضعتها في خطوات متسلسلة، تقوم على سؤال المريض عن موضع الألم، وأسباب العلّة، والقيام بالفحص السريري، والعمل على تشخيص العلة وتحديدها، ومن ثمّ تحديد الدواء الذي يتم كتابته بحضور ولي أمر المريض. وعلى الطبيب أن يتابع الحالة من خلال فحصه مرة أخرى في أقرب فرصةٍ مواتية، وتدوين ملاحظاته عن تطورات الحالة الصحية التي بلغها المريض، وتسليمها إلى أهل المريض من أجل الاحتفاظ بها. وعلى الطبيب أن يبقى ملازمًا لتطورات حالة المريض حتى بلوغ مرحلة الشفاء التّام. وفي حالة موت المريض يقدّم أهل المريض إلى نقيب الأطباء التقارير التي كتبها الطبيب عن تطوّر الحالة الصحية للمريض. وهنا يكون للنقيب إصدار الحكم بعد دراسة التقارير، فإذا وجد أيّ خللٍ أو خطأ في التشخيص، فإنه يوصي بأن يقدّم الطبيب لأهل المريض المتوفى ديته، بصفته مسؤولاً عن إساءة التدبير والعبث بأرواح الناس[٤٦].

أما مهنة الكحالة فإنها كانت تقوم على المعرفة بتشريح العين والأمراض التي تصيبها، مع المعرفة التامّة بتركيب العقاقير الخاصّة بعلاج أمراض العيون، مع أهمية وجود الأدوات الخاصة بالفصد والتكحيل. وكان المحتسب يشير على أعوانه بأهمية متابعة أدعياء مهنة الكحالة، الجوّالين منهم خاصّة، وذلك لقلة خبرتهم ونقص معلوماتهم، واعتمادهم على الغش في تحضير الوصفات، مما يضر بصحة العامة.

وفي مجال مهنة الجراحة كانت الشروط التي تفرض على مزاولها تؤكد أهمية المعرفة التامّة بكتاب جالينوس في الجراحة، وكتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي، مع المعرفة الدقيقة بتشريح جسم الإنسان، والتوافر على الأدوات الخاصّة بعمليات الجراحة.

أما الشروط الخاصة بمهنة جبر العظام[٤٧]، فإنها كانت تؤكد أهمية معرفة مزاولها بعظام جسم الإنسان وأشكالها، مع خضوعهم لامتحانٍ مباشر من قبل المحتسب؛ لغرض الحصول على الإجازة.

تُظهر العناية التي أبداها العرب المسلمون بالطب

وبكل ما يتصل به الأهمية البالغة لهذا الميدان، فلم يُترك شيء للمصادفة، إنما كان التكامل وحسن الأداء يمثّلان السمة الملازمة. فعلى الرغم من الاهتمام بكفاءة الطبيب، وتعدّد التخصصات، والتوجّه نحو المعالجة الدقيقة، إلاّ أنّ الإضافة الأهمّ في كلّ هذا كانت تتبدّى في انتشار المستشفيات «البيمارستان»، وكانت بدايتها قد استندت إلى أُسلوب العزل، ولا سيّما المصابون بالجذام، خشيةً من العدوى، إضافةً إلى بعض المستشفيات الخاصة... لكن التطورات التي شهدتها الدولة العباسية أفرزت تحوّلاً مهمًّا في هذا المجال، تمثّلت في بناء المستشفيات الواسعة التي تمتاز بالموقع الجيّد والمناسب الذي يتوافق وحالة المرضى، حتى إنّ اختيار المكان كان يخضع للعديد من الاختبارات واستشارة أصحاب المعرفة الطبيّة، وكان عضد الدولة قد اعتمد على الطبيب الرازي في اختيار موقع المستشفى التي قرّر بناءها. والظاهرة الأهمّ في المستشفيات العربية الإسلامية أنها كانت تُدار وفق أسلوب التخصّصات[٤٨]، حيث تمّ إنشاء مستشفيات خاصة بالأمراض العقلية والجلدية، في حين تمّ إنشاء مستشفيات خاصة تهتم بعلاج الأمراض العامة، وإذا ما كانت المستشفيات قد برزت في الحواضر الإسلامية الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس، وتنوعت خدماتها، لم يمنع هذا العرب من استحداث أسلوب جديد في إدارة المستشفيات، تمثّل في «المستشفى السيّار»، الذي يقوم على نقل الخدمات وفقًا للحالات الطارئة، ولا سيّما مواجهة الأوبئة وبعض الأمراض السارية، ويتوافر على التجهيزات الرئيسة التي تلزم للمعالجة.

تميّزت المستشفيات بالانضباط والنظام العالي، حيث تتوزع الاختصاصات بشكلٍ دقيق وحاذق، مع الحرص الشديد على النظافة ونوعية الطعام المقدّم للمرضى، مع توزيع المستشفى إلى قسمين رئيسين: رجال ونساء، وتوزيع الردهات وفقًا لنوع الأمراض، حيث تتوزع إلى أمراض العيون والجراحة والكسور والحميّات إضافةً إلى قسم الطوارىء، الذي يقوم باستقبال الحالات السريعة والمفاجئة[٤٩]. إضافةً إلى كلّ هذا كانت العناية بالنقاهة؛ إذ لا يتمّ إخراج المريض دون التأكّد من سلامته التامّة والكاملة.

كان خلفاء بني العباس قد أبرزوا اهتمامًا واسعًا في بناء المستشفيات، فقد أمر هارون الرشيد بتأسيس مستشفى واسعة لمعالجة الأمراض، ملحقٌ بها حديقة خاصّة لزراعة الأعشاب الطبية، ومدرسة لتعليم الأطباء الجدد[٥٠].

ونتيجة للإقبال المتزايد من قبل العامّة ظهرت مجموعة من المستشفيات الخاصة، إلاّ أن الدولة الإسلامية توجّهت نحو تقديم الدعم لجميع المؤسسات الطبية دون استثناء، وكان الطبيب سنان بن ثابت الذي استفاد من الحظوة التي قدمها له الخليفة المقتدر (ت٣٢٠هـ) من توسيع الخدمات الطبيّة، حتى شملت القرى والأرياف والسجون، إضافةً إلى الضواحي الملحقة بالمدن. وقد أجمع الأطباء العرب المسلمون على أهمية المستشفى في توفير الخبرة العملية للأطباء وتعميم الوعي الصحي. ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن بعض مستشفيات بغداد صار لها من السمعة الواسعة والأهمية، حيث إن الكثير من المرضى أو الأطباء الطامحين إلى مزيدٍ من الخبرة كانوا يأتون إلى بغداد من أجل زيارتها، ومن بينها مستشفى «العبدي»، التي احتوت على قاعاتٍ خاصّة للتمريض والمحاضرات والدرس، ومكتبة تحوي على أهم

المصادر الطبيّة، إضافةً إلى أربعة وعشرين طبيبًا هم الأكثر كفاءة وشهرة في العالم الإسلامي.

ولم يقف الأمر عند عاصمة الخلافة، بل إن مدنًا مثل القاهرة ودمشق ظهر فيها العديد من المستشفيات التي لا تقل شأنًا عن مستشفيات العاصمة، ولا سيّما خلال القرن الخامس الهجري. وكان المستشفى النوري في دمشق قد برز فيها العديد من الأسماء الطبية. كان الأهم فيها ابن أبي أصيبعة، وابن القف (ت٦٨٥هـ)، ولم تقلّ المستشفى الناصري في القاهرة شأنًا عن المستشفى النوري، حيث نالت الكثير من الشهرة والأهمية(٥١).

وكان المستشفى العربي الإسلامي يمثل غاية الطموح بالنسبة للمشتغل في ميدان الطب، على أساس أنها الفرصة التي لا يمكن الحصول عليها إلاّ من خلال الخبرة الطويلة والموهبة المميّزة. وكانت متطلبات مهنة الطب بالغة الصعوبة والتعقيد، حيث تقوم على آليّة حفظ النصوص، بوصفها تمثّل الأساس الذي يقوم عليه أداء عمل الطبيب بشكلٍ مباشر في تحديد العلة وتشخيصها. وكان الأطباء البارزون يوجّهون تلاميذهم إلى أهمية قراءة كتب جالينوس إضافةً إلى كتب الطب اليوناني التي كان يتراوح عددها حوالي اثني عشر كتابًا(٥٢). ولعل المنهج الأبرز في اتجاهات دراسة الطب كان يتلخص في اتجاهين؛ الأول اعتماده على القياس والمنطق، ورائداه ابن سينا وابن رشد، أما الثاني فإنه كان يستند إلى التجريب والمعالجات السريرية المباشرة، ورائده الطبيب الرازي، الذي كان يؤكد أهمية خضوع طالب الطب لاختبارٍ مباشر من أجل الحصول على الإجازة.

على الرغم من حالة التكامل التي تقوم بين الطب والصيدلة، والارتباط الوثيق بينهما، إلاّ أنّ العرب المسلمين أفردوا مجالاً واسعًا وحيّزًا بارزًا لكلا التخصّصين، مما ساهم في تبلور اتجاهات كل مجالٍ وتميّزه عن الآخر. فالصيدلة أو ما كانت تعرف بـ «الأقراباذين» تركيب الدواء، أُفرد لها مجالها، فكان العرب من أوائل الأمم التي عنيت بهذا العلم، واهتمت بممارسيه والأماكن الخاصة التي يتم فيها تركيب الدواء، والعناية التامة بمن يبيع الدواء إلى العامة من الناس، حيث لا يجوز لهم العمل إلاّ بإجازة خاصّة، تمرّ بعد امتحانٍ دقيق وشامل في معرفة أسماء العقاقير وأصولها ووسائل تركيبها والآثار الجانبية التي يمكن أن تنجم عنها.

وكان العلماء المسلمون قد اطّلعوا بشكلٍ واسع على المعرفة الهندية واليونانية في مجال علم العقاقير، إلاّ أن الاتصال الأوثق كان بالكتابات اليونانية، وهذا ما توضّحه السمعة الواسعة التي نالها كتاب ديوسقوريدس المعروف بالحشائش أو الأدوية المفردة. وإذا ما كان العلماء المسلمون قد اعتمدوا في الترجمة على إبقاء الاسم اللاتيني وعدم تحريفه، فإنما يعني الاحترام الشديد لخصوصيّة الجهود التي بذلتها الأمم الأخرى في المجالات المعرفيّة، بل إن هذا ما يؤكد الاتجاه العلميّ الواسع، الذي جعل منهم من أوائل الأمم التي أقرّت إنشاء نظام مدارس خاصّة لعلوم العقاقير والصيدلة. وهذا ارتبط باكتشاف العديد من الأدوية التي صارت قيد التداول لدى جميع الأمم. والنظام الدقيق الذي استندت إليه كان يقوم على التصنيفات للعقار من خلال الإشارة إلى الأصل الحيوانيّ أو النباتيّ أو المعدني، مع الإشارات إلى طرق الاستخدام المباشر وأساليبه. وتتجلّى أهميّة العلم العربي الإسلاميّ في تقديم العديد من العقاقير الجديدة مثل؛ الكافور، والصندل، والسنامكي،

والراوند، والمسك، والمر، وجوز القيء، والتمر هندي، والحنظل، وجوز الطيب، والقرفة، وخانق الذئب، إضافةً إلى العديد من العقاقير السائلة التي كانت تقدّم على شكل شراب عن طريق الفم، والكحول والمستحلبات وعصارات الزهور، فيما اعتمد الأطباء المشاهير منهم إلى تخفيف مذاق الدواء عن طريق تغليفه بمواد أخرى(٥٣).

وإذا ما كان التأثير الهنديّ واليونانيّ، قد مثّل الأصل ونقطة الانطلاق في بروز علم العقاقير والصيدلة لدى علماء المسلمين، فإن هذا لم يمنع من ظهور اللمسات الخاصة والتحسينات التي تمّ وضعها على العقاقير التقليدية، حيث طوّروا استخدام الأفيون والزئبق، وحسّنوا أساليب استعمال الحشيش والأفيون كمواد مخدّرة في ميدان جراحة الأعضاء. وكان للتصنيفات والشروح أثرها الفاعل في الارتقاء بأداء الصيدليّ المسلم، حيث تمّ كتابة الأدوية وفقًا لمنافعها وتأثيراتها وخواصها، ولعلّ الأثر الأهم في ذلك يمكن الإشارة فيه إلى موسى بن ميمون (ت١٦٠١هـ) صاحب كتاب (شرح أسماء العقار)(٥٤).

توجهت المؤسسة الحكومية الإسلامية إلى تقديم رعايتها المباشرة لهذا العلم، ولا سيّما من قبل خلفاء بني العباس، الذين أولوا المشتغلين في هذا المجال كل الدعم، وغدت الصيدليات تحت الإشراف المباشر للحكومة، بل تمّ تيسير كل ما تحتاج إليه من موادَّ أوليّة، حيث صار إلى استيرادها من مواطنها الأصليّة من أفريقيا وآسيا. وكان الصيدليّ المسلم قد تفنّن في وسائل تقديم الدواء وأشكاله، حيث غدا على شكل أقراص، وحبوب، وسوائل، ومربيات، ومراهم، وعجينة، وتحاميل، ومستنشقات. وأفرد العلماء المسلمون العديد من المؤلفات في هذا المجال، كان من بينهم سابور بن سهل (ت ٢٥٦هـ) الذي صنّف كتابًا خاصًّا في الأدوية وفوائدها، إضافةً إلى المقالات التي وضعها الرازي، وأجزاء من كتاب (القانون) لابن سينا، وكتاب (الصيدلة) الذي وضعه البيروني (-٤٧٤هـ) وكتاب (الأقراباذين) لابن التلميذ. وكان للمنهج التجريبي حضوره الفاعل والأكيد في هذا الميدان، حيث راح أصحاب المعرفة والخبرة يُملون على تلاميذهم الملاحظات المباشرة حول أهمية العقاقير وموطنها ومنشئها والآثار الجانبية التي يمكن أن تحدثها، حتى عرفت هذه الكراريس المكتوبة، والتي كان يتمّ تداولها في مدارس تعليم الطب والصيدلة بـ «المجرّبات». ولعلّ من المفيد هنا الإشارة إلى أن العالم المسلم كان على إيمانٍ ويقينٍ راسخ بأنّه ما من علّة يمكن أن تؤثر في الإنسان، دون أن يكون لها البلسم الشافي الموجود في الطبيعة، لذلك اجتهدوا في البحث عن مصادر العلاجات، انطلاقًا من مفهوم وعقيدة رحمة الله واسعة، والإيمان المطلق به.

وبحكم الأهمية والمباشرة في الاتصال لم يكن ميدان الصيدلة يخرج عن دائرة تأثير الصراع السياسي القائم، حيث كان للمؤامرات ومحاولات الاغتيال السياسيّ عن طريق السمّ، أثرها في إقبال ذوي الجاه والسلطان على تقريب أصحاب الخبرة والكفاءة في معالجة السموم، بل إنّ العديد منهم ساهم بالدعم الماديّ والتشجيع على وضع المصنفات الخاصّة لأوصاف العقاقير التي توقف عمل السمّ داخل الجسم، المعروفة بالترياق. والواقع أنه كان في الأصل ابتكارًا يونانيًّا، حيث قام يوحنا بن بطريق بترجمة البحث الخاصّ عن الترياق الذي كتبه جالينوس(٥٥)، لكن العلماء المسلمين عملوا على تطويره والتفنّن في أساليب تقديمه، نتيجةً للإقبال الواسع من قبل أصحاب الجاه والسلطان، الذين كانوا يخشون من حالات دسّ السمّ إليهم خفيةً. ●

الحواشي

١ – تاريخ العلم: ٢١٩.

٢ – العلوم عند العرب: ١٨.

٣ – عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١٦٣.

٤ – الطب العربي: ٣٤.

٥ – مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية: ١٧٧.

٦ – عيون الأنباء: ١٧٥.

٧ – المصدر نفسه: ١٧١.

٨ – طبقات الأطباء والحكماء: ٥٩.

٩ – الفكر العربي ومركزه في التاريخ: ٩٨.

١٠ – الإسلام والعرب: ٢٦١.

١١ – دراسات في تاريخ العلوم عند العرب: ٤٤.

١٢ – تاريخ العلوم عند العرب: ٢٧٦.

١٣ – علوم الحياة، من كتاب عبقرية الحضارة العربية: ٢٨١.

١٤ – الفكر العربي: ٩٩.

١٥ – الفهرست: ٣٦٢.

١٦ – الطب العربي: ١٣٠.

١٧ – حضارة العرب: ٤٨٨.

١٨ – علوم المسلمين أساس التقدّم العلمي الحديث: ٣٢.

١٩ – مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية: ١٨٥.

٢٠ – علوم الحياة: ٢٨٨.

٢١ – فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية: ٢٤٠.

٢٢ – شمس العرب تسطع على الغرب: ٢٩٠.

٢٣ – صانعو التاريخ العربي: ٢٨٤.

٢٤ – دراسات في الشؤون الطبيّة العربية: ٦٢.

٢٥ – عبقرية الحضارة العربية: ٢٩٢.

٢٦ – مقدمة في تاريخ العلوم: ١٩١.

٢٧ – الإسلام والعرب: ٢٦٣.

٢٨ – تاريخ الحكماء: ٣٤٠.

٢٩ – مقدمة في تاريخ العلوم: ١٩٨.

٣٠ – الإسلام والعرب: ٢٦٤.

٣١ – تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه: ١٧٦.

٣٢ – أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، من كتاب عبقرية الحضارة العربية: ٢٩٧.

٣٣ – الطب العربي: ١٥٧.

٣٤ – عيون الأنباء: ٥١٩.

٣٥ – الإسلام والعرب: ٢٦٧.

٣٦ – مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي: ١٥٣.

٣٧ – العلوم عند العرب: ٢٤.

٣٨ – التصريف لمن عجز عن التأليف: ١٩١.

٣٩ – القانون في الطب: ٢٨٢.

٤٠ – الحاوي في الطب: ١٩/٢.

٤١ – القانون في الطب: ١٣٧/٣.

٤٢ – التصريف لمن عجز عن التأليف: ٣٧٧.

٤٣ – معالم القربة في أحكام الحسبة: ٦٢.

٤٤ – أحكام السوق: ٣١.

٤٥ – نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ٨١.

٤٦ – معالم القربة في أحكام الحسبة: ٧١.

٤٧ – المصدر نفسه.

٤٨ – الطب العربي: ١٤١.

٤٩ – العلوم عند العرب: ٢٦.

٥٠ – الإسلام والعرب: ٢٦٩.

٥١ – علوم الحياة: ٢٥٦.

٥٢ – فجر العلم الحديث: ٢٤٣/١.

٥٣ – العلوم عند العرب: ٢٨.

٥٤ – تراث الإسلام: ١٦٢/٢.

٥٥ – علوم الحياة: ٢٦٧.

المصادر والمراجع

ابن الأخوة.

- معالم القربة في أحكام الحسبة، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

ابن أبي أصيبعة.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

الأندلسي : يحيى بن عمر.

- أحكام السوق، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٥م.

أوليري : دي لاسي.

- الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م.

ابن جلجل :

- طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد سيّد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

حتّي : فيليب.

- صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.

حمارنة : سامي.

- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة – ليبيا، ١٩٩٠م.

- علوم الحياة، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة – ليبيا، ١٩٩٠م.

خير الله : أمين أسعد.

- الطب العربي، ترجمة مصطفى أبو عز الدين، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٦م.

دياب : مفتاح محمد.

- مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ١٩٩٢م.

الرازي.

- الحاوي في الطب، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، د. ت.

روزنتال : فرانتز.

- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م.

الزهراوي :

- التصريف لمن عجز عن التأليف، معهد ويكم، لندن، ١٩٧٣م.

كارلتون : جورج.

- تاريخ العلم، ترجمة كمال اليازجي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م.

ابن سينا.

- القانون في الطب، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

شاخت وبوزورث.

- تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.

الشيزري.

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.

طوقان : قدري حافظ.

- العلوم عند العرب، دار اقرأ، د.ت.

عرب : مرسي.

- دراسات في الشؤون الطبية العربية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

فراج : عز الدين.

- فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

فروخ : عمر.

- تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م.

القفطي : جمال الدين.

- تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

لاندو : روم.

- الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

لوبوت : غوستاف.

- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

مارتن : م. أ.

- أبو علي الحسين بن سينا، من كتاب عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ، الدار الجماهيرية، مصراتة - ليبيا، ١٩٩٠م.

مظهر : جلال.

- علوم المسلمين أساس التقدّم العلمي الحديث، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٧٠م.

منتصر : عبد الحليم.

- تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدّمه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

نجيب : حكمت.

- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، منشورات جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٦م.

النديم :

- الفهرست، دار المعرفة للطباعة، بيروت، د.ت.

هاف : توبي.

- فجر العلم الحديث، ترجمة أحمد محمود صبحي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧م.

هونكة : زيغريد.

- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون ورفيقه، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٩م.